شؤم الذنوب

الحمد لله الواحدِ القهار، العزيزِ الغفار، وأشهد أن لا إله إلا الله الحليمُ الجبار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صادق أمين بليغ العبارة، أُرسل بالبشارة والنذارة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ما أظلم ليل وأضاء نحاره، أما بعد:

فأوصيكم عباد الرحمن ونفسي بتقوى الله :﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾] البقرة: 281. [

إخوة الإيمان، أخرج مسلم في صحيحه عن الأغر المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إلى اللهِ، فإيِّ أَتُوبُ، في اليَومِ إلَيْهِ مِائةً، مَرَّةٍ "، ويخبرنا الأغر المزني أيضًا بحديث آخر قريب منه قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّه لَيُعَانُ علَى قَلْبِي، وإنِّ لأَسْتَغْفِرُ اللهَ، في اليَومِ مِائةً مَرَّةٍ"؛ رواه مسلم.

قال النووي نقلًا عن القاضي في معنى الغين: "قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل، عدَّ ذلك ذنبًا واستغفر منه"؛ ا.هكلامه.

فإذا كان هذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإننا للاستغفار والتوبة أحوج، كيف ونحن المذنبون المقصرون؟!

إخوة الإسلام، والأمر بالاستغفار من الأشياء التي اتفقت عليها شرائع الأنبياء؛ قال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللّهِ اللّهِ إِنَّ رَبِي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: 90]، وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمُ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي وَيِ اللّهِ مَا يُحْرِمُ فُوةً إِلَى قُوتِكُمْ ﴾ [هود: 52]، وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: 61]، وقال لكم مِنْ إلَهٍ عَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: 61]، وقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا *يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُعْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ فَنَا عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُعْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارً ﴾ [نوح: 10، 12]. وأمر الله رسوله محمدًا عليه الصلام أن يقول لقومه : ﴿ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا اللّهَ إِنّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمُ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَصْلٍ فَطْلًا مُ الله اللهُ اللهُ عَلَيْهُ مُ مَنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَ وَبُوا إِلَيْهِ يُمَتِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجِلٍ مُسَمَّى وَيُؤْتِ كُلَّ دَي فَصْلُو فَطْلُهُ ﴾]هود: 2، 3. [

عباد الرحمن، التوبة والاستغفار نمحو بهما ذنوبنا، والتوبة والاستغفار ننقذ بهما أنفسنا من غضب الله وعقابه، أوليس قد قال الحق سبحانه :﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾]الشورى: 30.[

أُوليس قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: 41]، أوليس قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: 79]، ويقول تعالى : ﴿ نَيِّئْ عِبَادِي أَيِّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾]الحجر: 49، 50. [

عباد الرحمن، إن للذنوب شؤمًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، فمن شؤم الذنوب في الدنيا:

أنها سبب لقسوة القلب والران؛ قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوكِيمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: 14]، وربما تُسبب الختم والطبع على القلب والعياذ بالله؛ قال سبحانه : ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوكِيمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوكِيمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الأعراف: 100.

ومن شــؤمها :الخِذلان والانصــراف عن الحق؛ قال ســبحانه :﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَثَمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِــيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوكِمِمْ ﴾]المائدة: 49.[

ومن شؤم المعاصي :الجوع وزوال الأمن :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْحُوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾]النحل: 112.

ومن شومها :العقوبات المهلكة : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 40]، وقال سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكُرُوا السَّيِّنَاتِ أَنْ يَغْسِفَ اللَّهُ بِمِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: 45]، وقد تكون مباختة : ﴿ وَاتَبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: 55]. ومن شؤمها: تسليط الظالمين بعضهم على بعض : ﴿ وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: 129]. ومن شؤمها: الفساد البيئي؛ قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ عِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ الْغَضَ اللَّالِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41].

ومن آثار الذنوب وشؤمها :قلة البركة وضيق الأرزاق؛ قال سبحانه : ﴿ وَأَلُّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: 16]، وقال عز شانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: 96.

أما شؤم الذنوب في الآخرة، فيكفي أنها سبب لعذاب القبر وعذاب النار أجارنا الله منهما :﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ *فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهُ *نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾]القارعة: 6 – 11.[

وبعد فإني أتمثل هنا قول الشاعر:

إذا لم يعظ في الناس مَن هو مذنبٌ ***فمن يعظ العاصين بعد مُحمدِ

غفر الله لي ولكم وتاب علي وعليكم، وسترين وإياكم، إنه هو الغفور التواب الستير الرحيم.

الحمد لله القائل :﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمُّ الْهَتَدَى ﴾ [طه: 82]، وصلى الله وسلم على رسولنا المستغفر التواب وعلى الآل والأصحاب، أما بعد:

فإن من مداخل الشيطان أن يَجَرِّئنا على المعاصي بحجة أن الله غفور رحيم، والحق سبحانه يقول :﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾]الرعد: 6.[

عبد الله، إذا قالت لك النفس: إن الله غفور رحيم لن يعاقبك إذا عصيت، فقل: وهل أُنزِل الأبوان من الجنة دار اللذات والنعيم إلا بأكلهما من شجرة واحدة؟!

وقل يا نفس :ألم تعلمي أن يونس عليه السلام لما خرج وترك قومه قبل أن يأذن الله له، ضُيق عليه حتى التقمه الحوت، ثم تاب فتاب الله عليه.

وإن قالت لك النفس : لا تُضيق على نفسك، ألا ترى أهل الكبائر والكفار في سعة وصحة؟! فقل: ألم تسمعي قول الله : ﴿ وَلَوْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّه كَانَ بِعِبَادِهِ يَوْ الله عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَعَلَى الله عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَعَيْنَكَ تَقَلُّبُ اللّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ *مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِعْسَ الله عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ

ورُوي أن عمر رضي الله عنه كتب لسعد بن أبي وقاص ومن معه من الجند: "ولا تقولوا: إن عدوَّنا شرِّ منا فلن يُسلَّط علينا وإن أسأنا؛ فربَّ قوم سلِّط عليهم شرِّ منهم، كما سلط على بني إسرائيل -لمَّا عملوا بمساخط الله-كفارَ المجوس، فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْدًا مَفْعُولًا."...

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: "ما أهون الخَلق على الله إذا هم تركوا أمره."

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَخْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَافِيمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَثْخِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: 8.[

ثم صلُّوا وسلِّموا.